الفصل الثاني

التوزيع الجغرافي

تعتبر الدراسة المتعلقة بالتوزيع الجغرافي للمواقع التي اختارها البدو لنزولهم في مصر دون ريب، مجالاً خصباً للمعلومات حول هذا الموضوع، وهو ما حدا بنا إلي إعداد عجالة مختصرة للتقاسيم الجغرافية التي تمت بالنسبة لكل إقليم من أقاليم مصر حيثما وجد البدو.

ولكن هذا التوزيع الجغرافي لمواقع نزول البدو هو كذلك وسيلة من وسـائل إظهار عوامل أخرى فيما يتعلق على وجه الخصوص بالصلات التي كانت تـربط هذه القبائل ببعضها البعض.

ويعود التقسيم الأساسي للقبائل العربية إلى قبائل قحطانية وأخرى عدنانيـة، ويلتقي مع التجمعات التي تمت داخل مواقع نزول البدو، فقـد رأينـا إجمـالاً أن المحور الطبيعي الذي يشكله نهر النيل قد تمركزت عن يمينه قبائل قحطان، وعـن يساره قبائل عدنان.

ويمكن لنا أيضاً أن نستخلص عدة معلومات قيمة عن تسلسل علاقات الجيرة التي قامت بين القبائل في المواقع المتجاورة لنزولها، فالمشاحنات والمنازعات مـا كانت تنقص هذه القبائل المتجاورة، ولكن قامت كذلك بينها علاقات طيبة، بحيث لم يصل صدى ما وقع بينها من مناوشات –لا مفر منها– إلى سمع سلطات الـبلاد أو إلى أسماع المؤرخين من أمثال المقريزي أو ابن إياس.

وهذه الدراسة لا يمكن أن تقوم إلا على معرفة مواقع نزول كل قبيلـة مـن القبائل، ومعرفة مكان تواجد البدو في العصور الوسطى، وهي وسيلة لم تـستخدم حتى الآن لمعرفة الأصول البعيدة وشبه المحتملة لسكان بعض أقاليم مصر.

إن دراسة أسماء الأعلام في مصر الحديثة لا يمكن أن تكون تامة بدون إسهام ما سلف من ألقاب البدو؛ فبالإضافة إلى الأسماء ذات الأصل الكردي أو التركماني أو العثماني – والتي يعود اشتقاقها تقريباً إلى اسم مهنة أو حرفة، كالقهوجي والسلحدار... إلخ – فإن معرفة القبائل البدوية ستتيح تعيين ألقاب مثل: السعدي أو الهلباوي، المشتقة من القبيلتين العربيتين بني سعد وبني هلباء.

ولا يمكننا أن نخفي حقيقة أن القبائل البدوية كما رتبناها وفقاً لأنسابها إنما تتمثل أمامنا على شكل كتلة متراصة، حيث تتجمع كل البطون بطريقة مصطنعة، ودون أن نحسب حساباً للزمن. ويمكننا أن نرجع هذه الحقيقة إلى طبيعة الوثائق التي لدينا ذاتها، فالتوزيع النسبي (وفقا للأنساب) قد تم وفقاً للمعلومات التي أعطتنا إياها الوثائق المؤرخة، وهي وثائق قد كتبها مؤلفوها الذين عاشوا إبان العصر المملوكي، ولذا فهناك نوع من الفصل بين مقاطع الزمن الذي يمثل مستواها الأعلى (العصر المملوكي)، كما أن طبقتها السفلى تمثل – نظرياً – الجد أو الأجداد المشتركين.

ولذلك فقد دأبنا بطريقة منهجية على ذكر وصول القبيلة، ودون أن نتمكن مع ذلك من القيام بهذه المهمة بكل الدقة التي كنا نتمناها فيما يختص بالبطون بسبب العادة المألوفة من الإشارة إلى القبيلة الأم التي ينتمي إليها البطن الذي وصل إلى مصر، بدلاً من تسمية البطن نفسه والإشارة إليه.

ومع ذلك، فإن تسجيل تواريخ دخول القبائل المختلفة هو وسيلة من وسائل الاستدلال على مختلف طبقات البدو التي توالت على التراب المصري، وهو كذلك الوسيلة التي يمكننا أن نقدر بها الظاهرة البدوية حق قدرها، وأن نعين – تبعاً لظروف وصول كل قبيلة– ما إذا كانت أسباب هذه الهجرة ترجع إلى أسباب سياسية أو اقتصادية أو مناخية، أو إلى غيرها من الأسباب. وربما كان في ذلك في نهاية الأمر إحدى الإمكانيات التي يمكن أن نعتمد عليها بالنسبة للتقدير العددي للقبائل البدوية.

وهناك ظاهرة هامة قد نضجت فوق التربة المصرية، كان البدو هم المسئول الأول عنها. فالواقع أن الأجانب عندما يحضرون إلى مصر، فإنهم عادة ما يسكنون المدن ويقيمون بها، وربما كان ذلك هو السبب في أن هؤلاء الأجانب لـم يتركـوا أثراً عميقا في السكان المصريين، ولكنهم بالعكس كانوا دائماً أكثر تأثراً بالمصريين في عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم وأنظمتهم الاجتماعية. ويخضعون لعمليـة تمـصير سريعة، والعكس يصبح صحيحاً بالنسبة لما حدث للبدو، فالريف هو الذي اسـتقبل العدد الأكبر منهم. وإذا كان البدو قد أصبحوا على المدى الطويل، وبعد تحضرهم، فلاحين أصلاء، فهم من هذا الواقع قد عربوا البلاد بإعطائها لغة أخرى هي العربية التي حلت تماماً محل القبطية كلغة للتخاطب في بداية القرن التاسع الميلادي. كمـا أسهم البدو في أسلمة مصر، بتشكيلهم كتلة كبيرة من المسلمين، فقد كان الإسـلام دين البدو كما كان دين الحكام، بجانب الأقباط الذين أصبحت قبطيـتهم بالتـدريج أقلية.

إن تاريخ بدو مصر هو أساساً تاريخ للروابط البشرية. وهو يضم مراحلـه الخاصة به، وهذه قد لا تتطابق حتماً مع التقسيمات الكبرى التي تعارفنا عليها عادة عند دراسة التاريخ.

ويرجع هذا إلي أن أحداث التاريخ لا تثير عند البدو ردود فعل إلا إذا كـان ذلك مرتبطاً بالأخلاقيات البدوية، وإن تحليل سلوكهم قد يشير إلي أنهم يفرقون بين مفهوم الدولة وبين مفهوم ملكية الأرض، فملكية الأرض في نظرهم تحتفظ بسمات وقتية وعرضية تقريباً، ولا تمثل هذه الصفة النهائية التي قد تفرضها وجهة نظـر الإنسان المتحضر، فعندما كان المماليك هم سادة البلاد، كان على البدو أن يسائلوا أنفسهم عن مشاعرهم نحو أرض مصر، وكان عليهم أن يختاروا بين أن يظلوا بدواً ويغادروها، أو أن يصبحوا مستقرين ويبقوا عليها. ولكن البدو، قبل ذلك، قد عرفوا أنواعاً متعددة من العلاقات مع السلطة، نجم عنها عدة أطوار في سلوكهم، وبالتالي عدة مراحل في تاريخهم.